شاعر الرقة العاطفيــة

عرفت أحمد ناجي « بك » الذي كان سكرتيرا عاما لمصلحة التلغرافات يوم كنت طالبا بمدرسة الصناعة في قسم الكهرباء والكيمياء التابع لهذه المصلحة ، ولكنني لم أعرف أنه هو والد الشاعر « ابراهيم ناجي » الا من هذه الصفحات التي كتبها زميلنا الاستاذ صالح جودت في ترجمته وتحليل سيرته وأدبه ، وأرى أنني قد عرفت بذلك شيئا كنت خليقا أن أبحث عنه لو عرفت علاقته بشعر ابراهيم أو بمزاجه الذي أحسن التعبير عنه في شعره ، فانني كنت أعجب لاسلوب الرقة العاطفية الذي اشتهر به « ناجي » رحمه الله وأحاول أن

أنسبه الى أبوة أدبية من مدارس الادب العربي الحديث أو مدارس الأداب الاوربية التي شاعت عندنا بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ومنها مدرسة « ألفريد دي موسيه » و « لا مرتين » الفرنسيين ، ومدرسة « شلي » و « كيتس » الانجليزيين · ولكنني كنت أقف عند الظن القريب ولا أنتهي به الى الظن الراجح المقنع ، لان الحقيقة ـ كما يبدو لي الان ـ كانت في جانب آخر غير الذي كنت أذهب اليه ·

وكل ما نعلمه يقينا أن مدرسة الرقة العاطفية Sentimentalisation كانت غالبة على بعض أصحاب الاقلام الناظمين والناثرين من أدباء تلك الفترة ، وكان من أعلامها في النثر مصطفى لطفي المنفلوطي ، ومن أعلامها في الشعر اسماعيل صبري ، ومن أتباعها طوائف شتى من المتعلمين المبتدئين في صناعة الانشاء ·

ولكن الشاعر ابراهيم ناجي نمط في هذه الرقة العاطفية غير أنماط هؤلاء جميعا وغير النمط الذي انتقل الينا من اللغتين الفرنسية أو الانجليزية ،

ولا شك في صدق تعبيره عن تلك الرقة العاطفيـة ، شعرا ونثرا ، بل خلقا وشعورا كما عرفناه وعرفه أصدقاؤه الاقربون ، فهل يرجع الناقد بأدب الشاعر الى مزاجه ولا يزيد ، وهل يستغني بذلك عن تفسير ذلك المزاج أو تعليل نشأته عليه ؟

يخيل الينا أننا نفهم مزاج الشاعر حق فهمه اذا فهمنا أثر النسب والوراثة في تكوينه ، وعرفنا أن « أحمد ناجي » القصبجي أبوه ومربيه ومعلمه في صباه .

لقد كان « أحمد ناجي » أعجوبة بين رؤسـاء الدواوين في عصره .

كان يملك « مصلحة التلغراف » بين اصبعيه ، وكانت أعمال هذه المصلحة من طلب اجازة لتلميذ في مدرسة التلغراف الى تحويل خط مـن الخطوط الكبرى ترجع اليـه ولا يقررهـا الرؤساء قبـل استشارته والاستماع الى آرائه فيها ، وكان وصول مصري الى مثل هذه المكانة في ادارة المواصلات عموما ـ أيام الاحتلال الاولى ـ هو العجب الذي لم يتكرر

غير مرات معدودات في آحاد معدودين ، منهم « أحمد ناجي » السكرتير العام لمصلحة التلغرافات ·

كان «شخصية قوية» حازمة ، وكان رجلا محترما بين رؤسائه ومرءوسيه ، وكان أكبر وأقدر من أن يهمل في عمل يتولاه ، ولو لم يكن من الاعمال الموكولة ـ أصلا ـ اليه في نظام الديوان ·

أمثال هذه « الشخصية » تعقب أبناء يضارعونها في الحزم والصلابة ، وهو النادر القليل ، أو تعقب أبناء يعيشون طوال حياتهم وهم يحسون بحماية الابوة القوية ويطمئنون اليها ولا يستغنون عنها ، وهو الاعم الاغلب في سنن الوراثة النفسية ·

فالشاعر ابراهيم لم يزل طول حياته يشعر بهذه الحماية ويتفقدها ، ويعيش في ذلك الركن الركين من الرعاية والحنان الذي يثوب اليه طالب الدعة والشكاية ·

وشاعر « الرقة العاطفية » هو هذا الابن المطمئن الى كنف أبيه ، وهو في ميراث الاسرة كله سليل « القصبجي » الفنان الذي لا تستغرب منه دقة

الذوق في اختيار الانسجة وتنسيق الخيوط وتأليف الالوان واتقان الصناعة ذلك الاتقان الذي اشتهر به نساج الحرائر والقصب في القاهرة ، الى بقيتهم الباقية على قلتها في هذه الايام ·

رقة ودقة ···

هاتان هما الخصلتان اللتان نسجت منهما « العاطفية » الشعرية في سليقة ناجي رحمه الله ، ولم يكن في وسعه أن يتخلى عنهما لنقد يصيبه أو لصدمة من صدمات الحياة تخلف ظنونه ، لان الميراث من الأب والجد أعرق من أن يغيره الكلام أو يزحزحه الصدام ، ولو طالت به الايام ·

وقد نقده الدكتور طه حسين ونقدناه فيما نظمه من الشعر على أسلوب هذه « الرقة العاطفية » فأبت عليه أصالة الطبع أن يرى للناس مزاجا يخالف هذا المزاج أو سبيلا الى التعبير غير هذا السبيل ، وقال يسأل الدكتور طه :

« قل لي منصفا ، وليقل العقاد ، أي أنواع

الادب أحب الى النفوس ؟ ... لو سألت نفسك عن أحب الكتب اليك قلت الايام ... ولو سألت العقاد: أي الشعراء تحب ؟ قال لك هاردي ... وما شعر هاردي غير دموع وضعف من الصنف الذي تعيرنا به » .

ولولا المزاج المتمكن لاستطاع ناجي بفطنته ولطفه أن يفرق بين أدب الشكوى والبكاء وأدب السخط والقلق ، لانهما جد مفترقين ، ولكن «الرقة العاطفية» تخيل اليه أن آلام العاطفة كما أحسها وترجمها في شعره ونثره قضاء حتم لا ينجو منه الشاكي أو الساخط ولا المستسلم أو المتمرد ، وليس للشعر ولا للحياة من مجال غيره ولا من ترجمان له غير الدموع .

هذا الصدق في الشعور ، وهذا الصدق في التعبير، هما قوام الحق الذي يقرر للشاعر مكانه في أدبنا الحديث . ولا حاجة بهذا الحق الى تعزيز ، لانه حسب الشاعر من حق على قرائه ، ولكنه اذا كان — بهذا الصدق وهذا التعبير — ترجمانا للشاعرين بمثل شعوره وللمتطلعين الى تعبير مثل تعبيره ،

فقد تعزز حقه علينا بحق الادب وحق التاريخ .

وان المؤرخ الادبي ليتردد بين مدارس الادب في عصر ناجي ليضمه الى واحدة منها يستقر فيها ولا ينفصل عنها ، فيطول به التردد بين شوقي الشاعر والمنفلوطي الناثر ، وبين المجددين على نمط مطران من قراء الفرنسية ، أو المجددين على نمط شكري من قراء الانجليزية ، ولكنه قد يقترب بملامح الشبه من بعضهم ولا يستقر بالنسب بين فريق منهم ، لانه في الحق واحد من أولئك الشعراء الذين تجمعهم الصفة ولا يجمعهم عصر واحد أو مكان واحد ، وهم ظرفاء الشعراء الذين تشابهوا بالمزاج وتفرقوا بالزمن والوطن من أوائل عهد الشعر العربي الى عهده المذكور في هذه الايام .

ان « ابراهيم ناجي » من مدرسة الشعراء الظرفاء : ابن الاحنف وابن سهل ، والبهاء زهير ، واخواتهم من شعراء « يتيمة الدهر » و « نفح الطيب » . نعرفهم بسيماهم في كل عصر وفي كل بلد ، ويجمعهم لنا عنوان الظرف حيث كانوا بين

مدارس عصورهم ، فلا تخال أننا نتلقى ديوانا غير ديوان تاجي في هذا العصر اذا دعونا بديوان الشاعر الظريف ..!

عباس محمود العقاد